محاضرة:

أثر اللّغويين في تطور النقد العربي القديم

تمهيد:

أحب العرب لغتهم، وفُتِنوا بها، وأدركوا قدرتها العجيبة على ترجمة أدقّ خلجات النفس، وأخفى أسرار الضمير، فبالغوا بالعناية بها، واتّجهوا إلى البحث الدقيق عن أصولها وخصائصها، وألّفوا الكتب التي تتوخّى صيانتها، والإبقاء على نقائها.

وكان نزول القرآن الكريم بالعربية سببا مهما في زيادة حبّ العرب للغتهم، واشتداد حفاوتهم بها، لأنهم أدركوا أنّ العناية بها سبيلهم إلى فهم القرآن، والوقوف على مراميه، كما أيقنوا أنّ الحفاظ على اللغة، وفهمها، وتدارسها طريقهم إلى المحافظة على القرآن من تسرب الخطأ واللحن إليه. من هنا كان الخوف على القرآن الكريم، والحرص على صيانته من اللحن أبرز أسباب الاهتمام باللغة العربية، وجمعها ودراستها. فظهر الاهتمام بجمع مفردات اللغة العربية، وبالنحو والصرف، وغريب الألفاظ، وهو ما فتح الباب أمام النقد اللغوي عند العرب.

1-النقد اللغوي:

النقد اللغوي هو نقد يعتمد في أحكامه على اللغة وقواعدها، وأساليبها، وهو نقد يتّجه إلى العلمية والموضوعية، ويبتعد عن الآراء المتعصبة والذاتية. ولقد عرف العرب النقد اللغوي منذ الجاهلية وهو القائم على الخطأ في الاستعمال اللغوي، فقد كان العربي على صلة وثيقة بأسرار لغته، يدرك بفطرته الدلالة الوضعية للكلمات فإذا ابتعد الشاعر عن تلك الدلالة، واستعمل الكلمة في غير موضعها، أحس بذلك إحساسا مباشرا.

ومن الأمثلة الواضحة على ذلك ما روي عن أبي عبيدة قال: مرّ المسيب بن علس بمجلس بني قيس بن ثعلبة فاستنشدوه، فأنشدهم:

ألا أنعم صباحا أيها الربع وأسلم   نحييك عن شحط وإن لم تكلم

فلما بلغ قوله:

وقد أتناسى الهم عند ادكاره   بناج عليه الصيعرية مكدم

قال طرفة –وهو صبي يلعب مع الصبيان: استنوق الجمل. والصيعرية سمة في عنق الناقة لا البعير. وقد استعملها المسيب خطأ في وصف الجمل فأنكر عليه طرفة بعبارة ساخرة هي: استنوق الجمل، معتمدا على حسه اللغوي في تخطئة الشاعر الذي بعد عن الصواب في استعماله اللفظ.

ومن الأمثلة عن النقد اللغوي أيضا قصة النابغة الذبياني مع حسان بن ثابت فقد روي أن النابغة أخذ على حسان في قوله:

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى   وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

أنه استعمل في مجال الفخر مفردات، كان غيرها أولى منها بالاستعمال، فقد ترك الجفان، والسيوف وهما أليق بموطن الفخر لأنهما جمع كثرة، واستعمل الجفنات والأسياف وهما جمع قلة، فقال له النابغة: أقللت جفانك وأسيافك. وقيل إنه عاب كلمات أخرى هي: "الغر" و"الضحى" و"يقطرن"، واقترح عليه أن يضع مكانها "البيض" "الدجى" و"يجرين" لأنهما ألصق بغرض الفخر.

2-جهود علماء اللغة في النقد الأدبي:

جدّت في شؤون المسلمين أحداث غيرت من الحياة الأدبية واللغوية تغييرا كبيرا في أذهان الناس. فقد اتّسعت رقعة البلاد الإسلامية، ودخلت إلى الإسلام أمم لا

تتحدث العربية، فقد وُجِد قوم يتكلمون العربية تعلما لا سليقة، وينقدون العربية صناعة ودراسة، لا جبلة وطبعا، وكلما بعد العهد بالجاهلية خفت السليقة، وأصبح الاهتمام بالعربية ضرورة للحفاظ على القرآن وصونه من الخطأ واللحن. من هنا ظهر الحرص على تنظيم اللغة العربية، والبحث في مفرداتها وتراكيبها وأعاريض الشعر فيها، بحثا يعتمد على القياس، ووضع القواعد، وكان القرن الثاني حافلا بهذا التدوين، وكانت الكوفة والبصرة أحفل المدن بالعلماء، وأغزرها ثقافة، وأبعدها أثرا في تأسيس العربية ووضع قياسها، وكانتا أسبق المدن عناية بكلام ولغة العرب وغريبها. وكان للنقد الأدبي نصيب من تلك العناية كبير.

فلأول مرة نجد نقدا يراد به العلم، وتراد به خدمة الفن الشعري، وخدمة تاريخ الأدب، بعيدا عن العصبية، والهوى، وغير خاضع للرغبة أو الرهبة، وإنما هو التحليل والدليل، وقرع الحجة بالحجة، وذكر الأسباب، وهذا هو النقد اللغوي الذي يحلّل النصوص من جميع نواحيها: ضبطاً، وبنية، وتركيباً.

وقد كان النحاة يتتبعون كلام العرب ليستنبطوا منه قواعد النحو، أو وجوه الاشتقاق، أو الأعاريض التي جاء الشعر عليها، وهذا الاستنباط يجرهم بالضرورة إلى نقد الشعر لا من حيث عذوبته أو رقته، أو جماله الفني، بل من حيث مخالفته للأصول التي هداهم استقراؤهم إليها في إعراب أو وزن أو قافية. فأظهروا بعض ما وقع فيه شعراء الجاهلية من الخطأ في الصياغة. وما وقع فيه الإسلاميون من ذلك. فعيسى بن عمر الثقفي أخذ على النابغة الذبياني قوله:

فبتُّ كأني ساورتني ضئيلة من الرُّقش في أنيابها السمّ ناقعُ

والصواب أن يقول ناقعا بالنصب على الحال. وكان عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي متتبعا أخطاء الفرزدق، مكثرا الرد عليه. وأخذوا على الفرزدق قوله:

وعضُّ زمانٍ يا ابن مروانَ لم يدَع من المال إلا مُسحتاً أو مُجَلَّفُ

فرفع آخر البيت، وأتعب أهل الإعراب في طلب العلة. وقد سأل بعضهم الفرزدق عن رفعه إياه فشتمه وقال: عليّ أن أقول وعليكم أن تحتجّوا.

وكذلك تكلم النحاة في الأوزان والقوافي. فأبو عمرو بن العلاء يعرف الإقواء بأنه اختلاف الإعراب في القوافي.

وعلماء اللغة طبقات، وهم بصريون وكوفيون. فمن البصريين خلف الأحمر، وأبو زيد الأنصاري، والأصمعي، وأبو عبيدة معمر بن المثنّى، ومحمد بن سلاّم الجمحي، ومن الكوفيين المفضل الضبي، وأبو عمرو الشيباني، وابن الأعرابي، وحماد الراوية وهم جميعا كانوا يروون اللغة والغريب والأشعار والأنساب والأخبار والنوادر مع تفاوت في الميول، فأبو عبيدة تغلب عليه رواية الأخبار والأنساب. وأبو زيد الأنصاري تغلب عليه اللغة والغريب، أما الشعر فأخصّ من عرف بروايته أبو عمرو بن العلاء. فقد جمع أشعار بعض الجاهليين كامرئ القيس والأعشى والشمّاخ، وبعض الإسلاميين كعبد الرحمان بن حسان والراعي، ثم المفضّل الضبي صاحب ديوان المفضليات، ولكن الفضل كل الفضل في رواية الشعر العربي، وجمعه يرجع إلى الأصمعي، وأبي عمرو الشّيباني، فقد جمع الأصمعي أشعار نيف وعشرين شاعرا من مشهوري الجاهلية والإسلام، وجمع أبو عمرو الشيباني أشعار نيّف وثمانين قبيلة. وإلى هؤلاء يرجع الفضل في جمع اللغة والأدب.

3-مجالات النقد اللغوي وأثره في تطوير النقد:

يهتم الناقد اللغوي ببيان سلامة العمل الأدبي من الخطأ، ومطابقته للمألوف من قواعد اللغة، والمعهود من نظامها. كما يهتم بالكشف عن مواطن الجودة والرداءة في ذلك العمل. بالاستناد لمقاييس علمية تتميّز بالثبات والاستقرار، ولا شأن لذوق

الناقد أو حسّه الفنّي في الكثير منها. وقد استمدت هذه المقاييس من كلام العرب الفصيح بعد جمعه واستقرائه، وأصبحت مرجعا تبصر الناس بالاستعمال اللغوي السليم، وتقيهم الوقوع في الخطأ، والمخالفات اللغوية.

ولم تنشأ هذه المقاييس ولم تُدون إلا في أواخر العصر الأموي، وذلك بعد أن مسّت الحاجة إليها، عندما خرج العرب من الجزيرة، وامتزجوا بغيرهم من الأمم، وبدأ اللحن يغزو الألسنة.

ومن أمثلة وقوف نقاد اللغة عند أخطاء الشعراء أن الأصمعي خطأ قول امرئ القيس " بين الدخول فحومل" فقد رواه بين الدخول وحومل، وقال: لا يقال: رأيتك بين زيد فعمرو، إنما يقال وعمرو، ويقال: رأيت زيدا فعمرا إذا رأى كل واحد منهما بعد صاحبه. كما نظروا في مواطن الجودة والرداءة، فوقفوا عند الكلمة ووزنها واتخذوه مقياسا من مقاييس المفاضلة بين الألفاظ، فاشترط ابن سنان أن تكون الكلمة الفصيحة:" معتدلة غير كثيرة الحروف، فإنها متى زادت على الأمثلة المعتادة المعروفة، خرجت عن وجه من وجوه الفصاحة" وقد عاب ابن سنان على المتنبي قوله:

إن الكرام بلا كرام منهم مثل القلوب بلا سويداواتها

ذلك لأنه استعمل كلمة (سويداواتها) وهي رديئة لطولها، وكثرة حروفها.

لقد اهتم النقد اللغوي بدرء الخطر عن اللغة وحمايتها من الفساد، وتهذيبها وتصفيتها مما يشوبها من أخطاء. ولم تتوقف جهود اللغويين عند هذا الشكل من النقد بل تعدّت إلى النقد الفنّي الذي يتصل بعناصر الجمال في الأدب وهو متنوع فسيح، فقد كانوا يستحسنون أبياتا في معنى خاص، أو يستجيدون مطلع قصيدة، أو قصيدة

كاملة، أو يوازنون بين شعر وشعر. فأبو عمرو بن العلاء يقول: أحسن شعر قيل في الصبر على النوائب قول دُريد بن الصِّمَّة من أبيات:

يُغار علينا واترين فيُشـــــــتفى بنا إن أُصبنا، أو نُغير على وِتر

بذاك قسَمنا الدهر شطرين قسمة فما ينقضي إلا ونحن على شطر

وقد تعمّق اللغويون في فهم الشعر وتذوّقه، وفي معرفة مميزات الشعراء، وضروب الصياغة، كما وقفوا على ما لكل شاعر من خصائص ولاسيما كبار الشعراء، عرفوا طبقة ملكته الشعرية، وما يحسن من القول، وما يطرق من أغراض، وما يجنح إليه من رقة أو جزالة أو حوشيّة، وعرفوا أهمية الإيجاز في المعاني الجزلة، وفي البيت الواحد، وعرفوا مزايا طول النفس في القصائد، وأثر ذلك في غزارة المعاني، واستيفاء الكلام.

لقد ساعدت جهود اللغويين في نقل النقد الأدبي من آراء، وأحكام تستند إلى الذوق، والذاتية، والهوى إلى أحكام تعتمد التحليل والتعليل، والحجة والأدلة العلمية. من خلال عنايتهم باللغة، وإرساء قواعد التحليل والقياس، والفهم الدقيق، والعميق للعمل الأدبي.